

مشروع الشخصية الإسلامية وإسهامها النهضوي في فكر محمد عزيز الحبابي

The Project of Islamic Personalism and its Renaissance Contribution to the Thought of Muhammad 'Aziz Lahbabi

الباحث: فوزي أعراب *

جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان (المغرب)

faouzi.aarab1@etu.uae.ac.ma.

تاريخ النشر: 2026/06/10

تاريخ القبول: 2026/03/24

تاريخ الارسال: 2025/11/18

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى دراسة مشروع "الشخصانية الإسلامية" عند المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي (1922-1993) وإبراز إسهاماته النهضوية، باعتباره أحد أبرز المشاريع الفكرية التي سعت إلى تأصيل مفهوم الشخص في الثقافة الإسلامية وتقديم رؤية نهضوية متكاملة تضع الإنسان في مركز الفعل الحضاري.

تناول البحث التعريف بالمفكر محمد عزيز الحبابي، ثم دراسة مفهوم الشخص والشخصانية في الفكر الإسلامي عنده، ثم بيان الإسهام النهضوي للشخصانية الإسلامية، وكيف قدمت رؤية متكاملة للنهضة من خلال: تجديد الفكر الإسلامي، وتكريم الإنسان وتعزيز مكانته، وتأسيس قيم الحرية والمسؤولية، وتعزيز مفهوم المواطنة والانتماء للأمة، وتحقيق التوازن بين الروحي والمادي، وتعزيز مبدأ المساواة بين البشر، وتفعيل دور الشخص في التغيير والإصلاح.

خلص البحث إلى أن مشروع الشخصية الإسلامية عند الحبابي يُعد إسهاماً فكرياً متميزاً في الخطاب النهضوي المعاصر، حيث استطاع تقديم رؤية إسلامية أصيلة ومعاصرة توازن بين الأصالة والتجديد، مما يجعلها قابلة للتطبيق في معالجة تحديات الواقع العربي والإسلامي المعاصر. وأوصى البحث بضرورة إجراء المزيد من الدراسات حول هذا المشروع، وتطبيق مبادئه في مجالات التربية والسياسة والثقافة.

الكلمات المفتاحية: الشخصية الإسلامية، محمد عزيز الحبابي، الفكر النهضوي، تجديد الفكر الإسلامي، الإصلاح، النهضة.

* المؤلف المرسل

Abstract:

This research investigates the project of "Islamic Personalism" developed by the Moroccan thinker Mohamed Aziz Lahbabi (1922-1993) and highlights its crucial contributions to the Arab and Islamic renaissance. This project is a significant intellectual endeavor that sought to establish the concept of the person (human being) within Islamic culture and propose an integrated renaissance vision centered around human action. The study examined Lahbabi's biography, explored the concept of the person and personalism in his Islamic thought, and demonstrated its renaissance impact. This contribution includes presenting a comprehensive vision for reform through: renewing Islamic thought, honoring the human being and enhancing their status, establishing the values of freedom and responsibility, promoting citizenship and belonging to the Ummah, and achieving balance between the spiritual and material dimensions.

The research concludes that Lahbabi's Islamic Personalism is a distinguished intellectual contribution to contemporary renaissance discourse. It successfully reconciled authenticity with renewal, making it applicable for addressing the challenges of the contemporary Islamic world. The study recommends further research and the application of its principles in education, politics, and culture **Keywords:** Islamic Personalism, Mohamed Aziz Lahbabi, Renaissance Thought, Renewal of Islamic Thought, Reform, Renaissance.

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد؛

فيُعد المفكر محمد عزيز الحبابي من أبرز المفكرين المغاربة الذين أسهموا بشكل فعال في إثراء الفكر الإسلامي المعاصر بالإسهام في قضية النهضة، وذلك من خلال مشروعه الفكري المتمثل في "الشخصانية الإسلامية".

وقد استطاع الحبابي من خلال هذا المشروع أن يقدم رؤية تجديدية للفكر الإسلامي، تركز على مفهوم الشخص والشخصانية، وتسعى إلى تأصيل هذا المفهوم في التراث الإسلامي، مع الاستفادة من المفاهيم الفلسفية الغربية المعاصرة⁽¹⁾.

تنبع أهمية مشروع الشخصية الإسلامية عند الحبابي من كونه يمثل محاولة جادة للجمع بين الأصالة والتجديد والإبداع الفكري، حيث يستند إلى المرجعية الإسلامية ويستثمر التراث الفكري والفلسفي الإسلامي، في الوقت الذي ينفث فيه على المنجزات الفكرية المعاصرة، لا سيما الفلسفة الشخصية الغربية، ويحاول التفاعل معها بشكل نقدي وإبداعي.

لقد شكل هذا المشروع استجابة فكرية عميقة للتحديات التي واجهت العالم الإسلامي في القرن العشرين، من تخلف حضاري وتبعية ثقافية واستلاب في الهوية، فجاء طرح الحبابي ليعيد الاعتبار للذات الإسلامية من خلال تعزيز مفهوم الشخص والتأكيد على دوره في بناء الحضارة وتحقيق التقدم.

وما يميز إسهام الحبابي في الفكر الشخصي أنه استطاع أن يحقق للفلسفة الشخصية بعدها الديني الإسلامي الكامل، حيث ⁽²⁾نهل من القرآن والحديث النبوي ليثبت مفهوم الإنسان لا يوجد في الفلسفة الغربية...، لقد أثبت الحبابي حرية الإنسان واستقلاله من خلال القرآن والحديث النبوي، كما حدد علاقة الإنسان بالآخر بعلاقة

(¹) يقول محمد وقيدي: "هناك قيمة نستفيد منها من مؤلفات محمد عزيز الحبابي، وهي انفتاحه الفكري على كل تاريخ الفلسفة، سواء كان تراثا يرجع إلى الحضارة التي يلتقي إليها أو إلى حضارات أخرى كالفسفة اليونانية أو الفلسفة الأوروبية الحديثة والمعاصرة". جراً الموقف الفلسفي، محمد وقيدي، (ص: 147-148)، أفريقيا الشرق، 1999م.

الشهادة وهو مفهوم قرآني، وربما تكون هذه أهم ما يميز مفهوم الإنسان عند الحبابي عن غيره من الفلاسفة⁽²⁾.

ومن خصائص مشروع الحبابي أنه لا يكتفي بالجانب النظري التأصيلي، بل يتجاوزه إلى الجانب العملي التطبيقي، حيث يقدم رؤية للإصلاح والنهضة تشمل الأبعاد الفكرية والاجتماعية والثقافية، فالشخصانية الإسلامية عنده ليست مجرد نظرية فلسفية، بل هي مشروع نهضوي شامل يهدف إلى تحرير الإنسان المسلم من عوائق التخلف والاستلاب، وتمكينه من استعادة فاعليته الحضارية.

وعليه، فإني سأحاول في هذا البحث بإذن الله تعالى أن أبين الجهود الفكرية التي بذلها المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي في معالجة قضية النهضة والتجديد الحضاري، وذلك من خلال تحليل مشروعه الرائد "الشخصانية الإسلامية"، الذي يعد إسهاماً متميزاً في الخطاب النهضوي المعاصر.

كما أنني سأسعى إلى إبراز كيفية تأصيل محمد عزيز الحبابي لمفهوم الشخص في إطار المرجعية الإسلامية، وكشف الوسائل التي اقترحها لتحقيق النهوض الحضاري من خلال تكريم الإنسان وتفعيل دوره في عملية التغيير والإصلاح، مع الوقوف على الأبعاد العملية لهذا المشروع وإمكاناته في معالجة تحديات الواقع العربي والإسلامي المعاصر.

2. إشكالية البحث:

تتمحور الإشكالية الأساسية لهذا البحث حول التساؤل الجوهرية: كيف تمكن المفكر محمد عزيز الحبابي من بلورة مشروع الشخصانية الإسلامية كمدخل متميز للنهضة الحضارية؟ وما هي الآليات والمفاهيم اعتمدها في تأصيل هذا المشروع داخل المرجعية الإسلامية؟

وتتفرع عن هذه الإشكالية المحورية عدة تساؤلات فرعية مهمة:

- ما هي الخصائص المميزة لمفهوم الشخص في فكر الحبابي، وكيف تأصل في التراث الإسلامي مقابل المفاهيم الغربية؟

(2) أحمد بوعود، محمد عزيز الحبابي: فلسفة إنسانية ومشروع نهضوي، ضمن كتاب جماعي، نحن والغرب، نشر: 2017م، ص: 264.

- إلى أي مدى نجحت الشخصية الإسلامية في تقديم بديل حضاري يوازن بين الأصالة والتجديد، وبين البعد الروحي والمادي؟

- كيف يمكن لمبادئ الحرية والمسؤولية والمساواة - كما صاغها محمد عزيز الحبابي - أن تسهم في تجديد الفكر الإسلامي وتحقيق النهوض الحضاري؟

ما هو الدور الفعلي الذي يمكن أن تضطلع به الشخصية الإسلامية في معالجة تحديات الواقع العربي والإسلامي المعاصر؟

3. أهداف البحث:

يمكن إجمال الأهداف التي يسعى هذا البحث لتحقيقها فيما يلي:

- تحديد مفهوم الشخص والشخصانية كما بلورهما الحبابي في إطار الثقافة الإسلامية، وإبراز سماتها المميزة التي تجعلها مشروعاً فكرياً متكاملًا.

- تحليل الأبعاد النهضوية للشخصانية الإسلامية وآليات تطبيقها.

- إبراز دور الشخصية الإسلامية في تحقيق التوازن الحضاري والتغيير الاجتماعي.

- تقييم الإسهام الفكري للحبابي في إثراء الخطاب النهضوي المعاصر، وذلك من خلال تقدير مكانة مشروع الشخصية الإسلامية في سياق الفكر العربي الإسلامي وأثره في المشاريع الفكرية المعاصرة.

4. الدراسات السابقة:

لقد حظي فكر محمد عزيز الحبابي باهتمام كثير من الباحثين والدارسين، حيث تناولت جوانب مختلفة من مشروعه الفكري الشخصاني، ومن أبرز ما وقفت عليه من هذه الدراسات والأبحاث ما يلي:

- الأبعاد الشخصية للإسلام عند محمد عزيز الحبابي، الباحثة: لطيفة عميرة، ضمن مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، المجلد 14، العدد: 5، 2022م.

- تعدد الشخص بين وحدة الكائن ووحدة الإنسان في شخصانية محمد عزيز الحبابي، الباحث: محمد المصباحي، مقالة منشورة ضمن مجلة الأزمنة الحديثة، العدد: 10.

-شخصانية الحبابي وغديته: فلسفة بين القلق والأمل، الباحث: أنطوان سيف، ورقة علمية قدمت في الندوة التي نظمها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، في معرض بيروت الدولي للكتاب، يوم 9 دجنبر 2015م، وهي منشورة ضمن مجلة تبين، العدد: 4/16.

-الشخصانية في الفكر العربي المعاصر "محمد عزيز الحبابي نموذجاً"، الباحثة: سارة عماري، رسالة ماستر في الفلسفة العامة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، 2016/2017م.

-الشخصانية الواقعية وأثرها في الفكر العربي المعاصر: محمد عزيز الحبابي نموذجاً، الدكتوراة نوال عباسي، ضمن مجلة العلوم الاجتماعية، العدد: 25، 2017م.

-الفكر السياسي ومشكلة التخلف عند محمد عزيز الحبابي، الباحث: عمر بن ازواو، ضمن مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد: 1، العدد: 1، يناير 2013م.

-الفلسفة الشخصية الواقعية عند محمد عزيز الحبابي، الباحثة: آمنة شعبانة، رسالة ماستر في الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، الجزائر، 2018/2019م.

-محمد عزيز الحبابي: فلسفة إنسانية ومشروع نهضوي، الدكتور أحمد بوعود، ضمن كتاب جماعي، نحن والغرب، نشر: 2017م.

وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات وإسهامها في فهم أبعاد متنوعة من الفكر الشخصاني عند محمد عزيز الحبابي، إلا أن هذا البحث يتميز بتركيزه على استكشاف الكيفية التي أسس بها الحبابي لمفهوم الشخص ضمن الإطار المرجعي الإسلامي، والوقوف على الوسائل التي طرحها لإنجاز المشروع الحضاري النهضوي من خلال إعلاء شأن الإنسان، وتمكين دوره الفاعل في مسيرة التطوير والإصلاح الحضاري.

كما يتميز هذا البحث بتقديم رؤية متكاملة حول الصلة الوثيقة بين المنطلقات التأصيلية الإسلامية للشخصانية الحبابية وبين أهدافها النهضوية التحديثية.

5. منهج البحث:

لتحقيق الأهداف التي يرمي هذا البحث الوصول إليها اعتمدت المنهج الاستقرائي؛ القائم على استقراء النصوص والأفكار من مؤلفات محمد عزيز الحبابي لاستخلاص المعالم النهضوية من فكره، ثم المنهج الوصفي التحليلي؛ الذي اعتمدته لعرض وتوصيف مفاهيم الشخصية الإسلامية عند الحبابي، مع تحليل هذه المفاهيم وإبراز أبعادها، ومدى إسهامها في النهضوي.

6. خطة البحث:

اقتضت طبيعة هذا أن البحث أن أجعله في مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة؛ أما المقدمة؛ فوطأت فيها للموضوع بتمهيد مبرز أهميته، مع طرح إشكاليته، وبيان المنهج الذي اتبعته فيه، ثم ذكر الدراسات السابقة التي وقفت عليها حول الموضوع، والخطة التي وضعتها لمحتواه.

-المبحث الأول: فقد خصصته للتعريف بالمفكر محمد عزيز الحبابي.

-وأما المبحث الثاني؛ فقد أفردته لبيان مفهوم الشخص والشخصانية في الفكر الإسلامي عند الحبابي وسماتها ، وفيه :

أولاً: تأصيل مفهوم الشخص في الثقافة الإسلامية.

ثانياً: سمات الشخص في الشخصية الإسلامية.

-وأما المبحث الثالث؛ فقد عقدته لإبراز الإسهام النهضوي للشخصانية الإسلامية.

-وختتمت البحث بخاتمة ضمنتها أهم النتائج، ثم ذيلته بفهرس المصادر والمراجع التي اعتمدتها في هذا البحث.

المبحث الأول: التعريف بالمفكر محمد عزيز الحبابي⁽³⁾.

هو محمد عزيز الحبابي، ولد بمدينة فاس، ودرس في الكتّاب ثم المدرسة الابتدائية ثم الثانوية، وبعد ذلك انتقل إلى باريس، ثم تابع دراسته في الفلسفة وحصل فيها على الإجازة ودبلوم الدراسات العليا، ودكتوراه الدولة من جامعة السوربون بفرنسا.

يقول محمد عزيز الحبابي عن هذه الفترة: «لقد تابعتُ دراستي العليا في فرنسا بالسوربون، وكان المغرب آنذاك ما زال تحت الحماية، لم أكن أشعر بأنني كائن كالكائنات الأخرى، على أن المستعمر كان يرمي إلى ترسيخ نوع من الإحساس بالدونية»⁽⁴⁾.

وقد تقلّد محمد عزيز الحبابي عدة وظائف عامة منها⁽⁵⁾: أستاذ الفلسفة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سنة (1959م)، ثم عيّن عميدا بالكلية نفسها سنة (1961م).

عُني محمد عزيز الحبابي بالكتابة والتأليف، وصرفَ عنايته للإشراف على بعض المجلّات الفكرية التي كان يصدرها: كمجلة آفاق التي صدرت سنة (1963م)، وكما ساهم في تثقيف جيل من المفكرين المغاربة الذين كوّنهم إما تتلمذاً عليه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، أو «بالإشراف على رسائلهم الجامعية، منهم: محمد عابد الجابري، علي أومليل، طه عبد الرحمن، الطاهر وعزيز، محمد القبلي، وغيرهم»⁽⁶⁾.

من أوضح سمات هذا المفكر انفتاحه على «التيارات الفكرية الفلسفية الغربية من خلال استدعاء أساتذة وشخصيات مرموقة لإلقاء المحاضرات والمشاركة في ندوات»⁽⁷⁾.

⁽³⁾ انظر ترجمة محمد عزيز الحبابي بتفصيل: السيد ولد أباه، أعلام الفكر العربي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2013م، ص: 191. ويوسف بن عدي، محمد عزيز الحبابي وتأسيس الفلسفة الشخصية الواقعية، نشر مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط الأولى، 2016م، ص: 18.

⁽⁴⁾ مقال: عبد الناصر غريب، محمد عزيز الحبابي أول مفكر عربي إسلامي يقبل ترشيحه لنيل جائزة نوبل للآداب، ضمن كتاب محمد عزيز الحبابي: الإنسان والأعمال، ج 3، ط الأولى، 1411هـ/1991م، ص: 130.

⁽⁵⁾ دراسات مغربية مهداة إلى المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، جمعية البحث في الآداب والعلوم الإنسانية، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط الثانية 1987م، ص: 235.

⁽⁶⁾ محمد عزيز الحبابي: الإنسان والأعمال ص: 241.

⁽⁷⁾ محمد برادة، أجوبة متدفقة، مقالة ضمن مجلة آفاق، العدد 53-54، يونيو 1993م ص: 355.

فالذي ميّز شخصية محمد عزيز الحبابي وفكره عن باقي المفكرين أنه «الوحيد الذي تبنى النزعة الشخصية التي كان من أبرز مفكرتها، وقد حاول بناء صياغة إسلامية مكتملة لها، شكلت عماد مشروعه الفكري، قبل أن يتحول إلى مذهب جديد أطلق عليه الغدية، شكّل موضوع كتاباته الأخيرة»⁽⁸⁾.

والشخصانية فلسفة ظهرت بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، وهي تهتم أساساً بالشخص وقيّمته، ونجد أن الحبابي قد اشتغل بها محاولاً فرض شخصيته بين أعلامها، ولم يكن اختيار الحبابي للاشتغال بالشخصانية يعني الأخذ بهذا المذهب دون التجديد فيه، «بل إنّ الحبابي انطلاقاً من كونه مفكراً عربياً مسلماً قد حاول التجديد في هذا المذهب بما يتلاءم مع قضايا العالم الذي ينتمي إليه، وفضلاً عن هذا كله، فإنّ قراءة كتاب (من الكائن إلى الشخص) توقفنا على نقطة انطلاق فكر مؤلفه من خلال الأمثلة الإسلامية من جهة، ومن خلال القيم الإنسانية والأخلاقية التي توجه تحليلاته»⁽⁹⁾.

وفيما يتعلق بالإنتاج الفكري لمحمد عزيز الحبابي، فقد ترك مؤلفات كثيرة ومتنوعة، منها ما هو باللغة العربية ومنها ما هو باللغة الفرنسية، والمقام هنا لا يسع لذكرها جميعاً، وإنما سأكتفي ببعض منها، وهي⁽¹⁰⁾:

- من الكائن إلى الشخص -دراسات في الشخصية الواقعية.
- من الحريات إلى التحرر.
- من المنغلق إلى المنفتح.
- ورقات في فلسفات إسلامية.
- مفاهيم مهمة في الفكر العربي المعاصر.
- الشخصية الإسلامية.

⁽⁸⁾ السيد ولد أباه، أعلام الفكر العربي، ص: 191.

⁽⁹⁾ محمد وقيدى، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط الأولى 2016م، ص: 68.

⁽¹⁰⁾ انظر جميع إنتاج ومؤلفات محمد عزيز الحبابي: كتاب دراسات مهداة إلى المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، ص: 229-230، ويوسف بن عدي، محمد عزيز الحبابي وتأسيس الفلسفة الشخصية الواقعية، ص: 28-31.

المبحث الثاني: مفهوم الشخص والشخصانية في الفكر الإسلامي عند الحبابي وسماتها.
أولاً: تأصيل مفهوم الشخص في الثقافة الإسلامية.

يبدأ الحبابي في مشروعه الفكري بالبحث عن مفهوم الشخص في التراث الإسلامي، وإن كان لفظ "شخص" بالمعنى الفلسفي المعاصر لم يكن موجوداً في اللغة العربية في عهد البداية الإسلامية، ولذلك اقترح الحبابي البحث عن المفهوم لا عن اللفظ في حد ذاته.

وهذا ما أشار إليه محمد وقيدى في قوله: ⁽¹¹⁾ "بما أن الشخصانية تتمحور حول مفهوم الشخص، فإن أول ما يبحث فيه الحبابي هو هذا المفهوم، لكن الحبابي الذي لا يجد لفظ شخص ذاته في اللغة العربية لعهد البداية الإسلامية، يقترح علينا أن ننطلق من المفهوم إلى الكلمة، فالمفهوم الذي نقصده بالشخص اليوم موجود في الثقافة الإسلامية، وإن لم تكن الكلمة ذاتها قد وجدت منذ ذلك الوقت" ⁽¹¹⁾.

وقد وجد الحبابي ألفاظاً أخرى استخدمت في التراث الإسلامي للدلالة على المفهوم ذاته، ومن بينها: "فرد، إنسان، وجه، ذات"، غير أن محمد عزيز الحبابي يفضل مصطلح "الشخصانية" على "الذاتية"؛ لأن كلمة "ذات" تستخدم - إلى جانب دلالتها على الإنسان - للدلالة على الحيوان والأشياء أيضاً.

ويعلل محمد عزيز الحبابي هذا الاختيار بقوله: ⁽¹²⁾ "نظن أن إطلاق (ذاتية) على الإنسان كما يفعله بعض الكتاب العرب غير ملائم، إن كلمة شخصانية في نظرنا أقرب إلى الصواب من الذاتية، ألسنا نرى أن لفظ (شخص) ينحصر في الدلالة على الإنسان، في حين أن كلمة (ذات) يشترك فيها الإنسان والحيوان" ⁽¹²⁾.

يرى الحبابي أن الإسلام أحدث تحولاً جذرياً في مفهوم الشخص، وذلك من خلال نقل الإنسان من دائرة الانتماء القبلي الضيق إلى دائرة الانتماء للأمة الإسلامية الواسعة، ففي العصر الجاهلي، كان مفهوم الشخص مرتبطاً بالانتماء القبلي، وكان الفرد يذوب في

⁽¹¹⁾ محمد وقيدى، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 79.

⁽¹²⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، دار المعارف، ط الثانية، القاهرة، 1983 م، ص: 21-22.

القبيلة، وبظهور الإسلام تغير هذا المفهوم، وأصبح الفرد شخصا مستقلا ومسؤولا، ينتمي إلى الأمة الإسلامية الواحدة.

لهذا يقول محمد عزيز الحبابي: «كان الشعور بالذات عند العرب في الجاهلية مبلا بنوع من الأنانية القبلية، وبظهور الإسلام أخذ العربي تدريجيا يحيي ذاته كجزء من أمة، أي: بوصفه جزءا من مجموع المؤمنين ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: 91]»⁽¹³⁾.

ويؤكد هذا المعنى في موضع آخر بقوله: «قد اكتسب مفهوم الشخص ثراء بالنسبة للعصر الجاهلي من حيث الامتداد والعمق، فالإسلام بتخطيه الأطر الضيقة وإبداله القبلية بالأمة، قد أعطى للكائن البشري بعدا امتداديا غير محدود، لأن دين الإسلام دين شمول ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 106] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: 28]»⁽¹⁴⁾.

وهذا التحول من النظام القبلي إلى نظام الأمة كان له أثره الكبير في تطور مفهوم الشخص كما يرى الحبابي، حيث أدى إلى اتساع أفق الفرد المسلم، وتحرره من قيود العصبية القبلية، وفتح أمامه آفاقا أرحب للتفكير والإبداع.

ويؤكد محمد وقيدي هذا المعنى عند دراسته وتحليله للمشروع الفكري محمد عزيز الحبابي، فيقول: «إن الإسلام قد فتح الباب أمام تفتح الشخص وتزايد قيمته كذات مستقلة، وذلك عندما ساعد على نقل الحياة المجتمعية من ضيق الانتماء للقبيلة إلى سعة الانتماء للأمة، إذ الفرق بين هذين المستويين أن أولهما يعطي قيمة للانتماء الإثني للشخص، في حين أن ثانيهما يجعل الشخص مندمجا في حياة جماعية معيار الانتماء إليها هو الاشتراك في الإيمان، سواء كان الانتماء القبلي واحدا أو مختلفا، ومن الواضح أنه كلما اتسع أفق الكائن اتسعت معه إمكانيات حريته وقيمه واستقلاله، فإن الاتساع في الأفق يسمح بنمو الشخصية وتطور حياتها النفسية والعقلية»⁽¹⁵⁾.

⁽¹³⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 09.

⁽¹⁴⁾ نفسه، ص: 9-10.

⁽¹⁵⁾ محمد وقيدي، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 82.

وقد شبه الحبابي هذا التحول بالانتقال من العلاقة الأفقية إلى العلاقة العمودية، حيث يقول: ⁽¹⁶⁾ «بفضل الدين حصل انقلاب جذري في ذهنية ووجدان العرب، فعوضاً عن أن يبقى العربي فرداً يذوب في القبيلة داخل اتصال أفقي، صار شخصاً يشعر بشخصيته في ذاتها ويتصل عمودياً بالخالق المتعالي» ⁽¹⁶⁾.

ثانياً: سمات الشخص في الشخصية الإسلامية.

حدد الحبابي مجموعة من الخصائص والسمات التي يتميز بها الشخص في الشخصية الإسلامية، ومن أهمها:

-الاستقلال الذاتي والحرية:

يؤكد الحبابي على أن الشخص في الإسلام يتمتع بالاستقلال الذاتي والحرية، وهو ما يتجلى في قدرته على الاختيار واتخاذ القرارات، والرفض والقبول، والمبادرة والإبداع.

يقول محمد عزيز الحبابي: ⁽¹⁷⁾ «الشخص قوة مبادرة واختيار يلتزم ويندمج وينسجم ويشعر فيقبل أو يرفض، تلك هي الخصائص اللازمة للاعتراف بأن للشخص استقلال ذاتي» ⁽¹⁷⁾.

وهذا الكلام يحيلنا إلى أن الشخصية عنده: ⁽¹⁸⁾ «تبدأ حين يصبح بمقدور أن يرفض الخضوع الأعلى لأي كان وأن يعترف بقيمة العقل دون أن يعني ذلك قبول السلطة المطلقة لعقل الغير، وأن يرفض كل هيمنة مذهبية وإيديولوجية، إذ لا إكراه عند الإسلام في الاعتقاد» ⁽¹⁸⁾.

ويؤكد في مناسبة أخرى على أهمية التحرر من التبعية للغير، والانسلاخ من ربة التقليد الأعلى، الذي يجعل الشخص تابعا لغيره بلا تروٍّ وبدون إعمال العقل، فقوله: ⁽¹⁹⁾ «تبتدئ الشخصية عندما يرفض الشخص الطاعة العمياء، ويعترف بالقيمة العليا للعقل والفكر، والاعتراف بتلك القيمة للشخص ليس معناه قبول المخاذلات أو السماح

⁽¹⁶⁾ الشخصية الإسلامية، محمد عزيز الحبابي، ص: 23.

⁽¹⁷⁾ نفسه، (ص: 11).

⁽¹⁸⁾ محمد وقيدي، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 82.

لبعض العقول أن تستبد بالأخرى، وليس هو الخضوع الأعى الذي يفرضه مذهب من المذاهب ولو كان دينيا ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:255]، لهذا لا يقبل الإسلام الوساطة بين البشر وربههم ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:185]]⁽¹⁹⁾.

-المسؤولية:

تعد المسؤولية من أهم سمات الشخص في الشخصانية الإسلامية، فالشخص عند محمد عزيز الحبابي مسؤول عن أفعاله وقراراته، وعن تغيير نفسه والعالم من حوله.

يقول في بيان هذا المعنى: "الشخص وحدة متفردة مستقلة الذات، واعية لأفعالها وما يترتب عن هاته الأفعال من نتائج، تلك هي المسؤولية، وليس معنى هذا أنه يجب على كل واحد أن يعتني بذاته ويلتزم بأفعاله، بل يجب عليه أيضا أن يتحمل مسؤولية العالم المحيط به ويحميه، كما يفعل الراعي مع غنمه طبقا للحديث النبوي: "الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" ⁽²⁰⁾⁽²¹⁾.

وهذه المسؤولية تشمل مسؤولية الإنسان عن نفسه وعن الآخرين وعن العالم من حوله، فهو خليفة الله في الأرض، كما يقول الحبابي: "امتزجت إنسانيتنا بنفحة إلهية، إذ نفخ الله فيها من روحه، ثم أكرمها بالمعرفة، وأسبع عليها ثقته الكاملة فخلفها على الأراضين، فالبشر خلفاء الله في الأرض، أي أنه تعالى نصيهم فيها مبدعين مسؤولين" ⁽²²⁾.

⁽¹⁹⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، ص: 12.

⁽²⁰⁾ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم: 52، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، رقم: 1599.

⁽²¹⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، ص: 47.

⁽²²⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، ص: 81.

-التوازن بين الروح والجسد:

يؤكد الحبابي على أهمية تحقيق التوازن بين الجانب الروحي والجانب المادي في شخصية الإنسان المسلم، وهو ما يميز الشخصية الإسلامية عن غيرها من الفلسفات التي تغلب جانباً على آخر.

يقول محمد عزيز الحبابي: "يعترف الإسلام أن الشخص كلية، لكنها غير متجانسة، ولهذا يأمر المسلم بأن يسعى إلى إحداث التوازن بين العنصرين ﴿وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:77]، ويؤكد حديث نبوي على هذا التوازن تأكيداً أقوى: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا) (23)، ففي التصور الفريد الذي يكونه الإسلام عن الشخص مكان مرموق للتوازن، فعلى الإنسان ألا ينصرف كلية إلى الروح وألا يستغرق كذلك في الجسد" (24).

وهذا التوازن هو الذي يحقق التكامل في شخصية المسلم، ويجعله قادراً على أداء رسالته في الحياة. وقد أشار محمد وقيدي إلى هذا المعنى في كتابه "الفيلسوف والإنسان"، فقال: "مفهوم الشخص في الإسلام تحدده أيضاً معطيات بيولوجية وأخلاقية مجتمعية، فلا مجال للشك في وجود الكائن على الصعيد البيولوجي، لأن هنالك آيات كثيرة تتحدث عن التكوين المزدوج للإنسان من جسم ونفس، فالإنسان مخلوق من طين ومن نفخة روحية إلهية فيه، ويصير الكائن شخصاً بقدر تحقيق هذا التوازن فيه بين العنصرين المكونين له والمشكلين أساس حياته البيولوجية - الفيزيولوجية والنفسية وكل ما يخل بانسجام التكوين الإنساني، وكل ما يعوق التوازن الذاتي للإنسان يفقد عملية التشخص معناها ويعود إلى مستوى الكائن" (25).

(23) قال الألباني في السلسلة الضعيفة 63/1: "لا أصل له مرفوعاً وإن اشهر على الألسنة في الأزمنة المتأخرة"، وأخرجه الحارث بن أسامة في مسنده كما في المطالب العالية لابن حجر 314/13، وابن قتيبة في غريب الحديث، 286/1، موقوفاً عن عبد الله بن عمرو ؓ.

(24) محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 31.

(25) محمد وقيدي، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 82.

-المساواة الإنسانية:

من السمات المهمة للشخص في الشخصية الإسلامية، المساواة بين البشر في القيمة الإنسانية، بغض النظر عن الفروق العرقية أو اللغوية أو الثقافية، فالناس جميعا سواسية، والتفاضل بينهم يكون بالتقوى والعمل الصالح.

وذلك ما يؤكدده محمد عزيز الحبابي بقوله: "يعتبر الإسلام أن كل كائن إنساني شخص بقطع النظر عن عرقه ولغته ولونه إذ لا فرق بين العربي والعجمي" ((26)).

ويضيف قائلا في موضع آخر: "في الإسلام الفرق الوحيد الذي يمكن اعتباره هو التمييز بين المؤمن وغير المؤمن، على أن كليهما يعد شخصا يساوي جميع الناس من حيث الكرامة الإنسانية وقداستها، فلكل شخص قابلية فطرية للإيمان، إذ جميع البشر من جوهر واحد، فكما في الحديث الذي يرويه البخاري "كلكم من آدم وآدم من تراب" ((27)) (28).

وقد عبر الحبابي عن هذا المعنى أيضاً بقوله: "كلما تحدث القرآن والسنة عن الجنس البشري استعمل كلمتي (إنسان) أو (آدم أبو البشرية) فلا يفضلان عصبية أو عرقا ما ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:04]، الإنسان بصفته مطلقة، كنوع لا بوصفه منتسبا لأمة أو قبيلة أو أسرة معينة" ((29)).

نجد محمد عزيز الحبابي أيضا وهو يؤسس لمبدأ المساواة ينتقد الفهم الخاطئ عند بعض الناس للآية القرآنية الكريمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110] عندما فسرها بعضهم بمعزل عن سياقها، لذلك نجده يقول: "يصعب تحديد مجموع الفئات الممثلة لخصوصيات العرب، لكن من أبرزها أولئك الذين يقفون عند الآية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110] فيؤولونها عن سياقها، فالقرآن يقصد بـ(أمة) مجموع المؤمنين، على اختلاف أجناسهم" ((30)).

(26) محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 13.

(27) لم أقف على تخریج هذا الحديث عند البخاري في صحيحه، لكنه أخرجه الترمذي في جامعه، أبواب المناقب، رقم: 3955، بلفظ مختلف: "الناس كلهم بنو آدم وآدم خلق من تراب".

(28) محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 16.

(29) نفسه، ص: 16.

(30) محمد عزيز الحبابي، مفاهيم مهمة في الفكر العربي المعاصر، دار المعارف، 1990م، ص: 34.

هكذا يوضح الحبابي أن بعض الفئات قد تستخدم هذه الآية لتمجيد خصوصيات العرب وتفضيلهم على غيرهم، بينما القرآن يقصد بكلمة (أمة) مجموع المؤمنين بغض النظر عن أجناسهم وأصولهم.

وهذا التفسير يتماشى مع الرؤية الشخصية الإسلامية التي جاء بها الحبابي، والتي تؤكد على كرامة الإنسان والمساواة بين البشر، فهو يدعو إلى فهم النصوص الدينية في سياقها الشامل الذي يؤكد على وحدة الإنسانية وعالمية الرسالة الإسلامية وليس على أساس عرقي أو قومي.

يؤكد محمد وقيدي على هذا المعنى في دراسته لمشروع الحبابي، فيقول: "هناك، في نظر الحبابي، عدة تأكيدات إسلامية تثبت حضور مفهوم الشخص وحرية وكرامته، كما تثبت المساواة بين الأشخاص، وإذا كان الإسلام يفرق بين المؤمن وغير المؤمن، وإذا كان يفاضل بين الناس حسب تقواهم، فإنهم بالنسبة إليه سواسية في الكرامة لأن لهم جميعاً قابلية الإيمان الديني، كما أنهم يرجعون إلى نفس الأصل، فكل البشر من آدم وهو من تراب، والأنبياء أنفسهم أشخاص من نفس الأصل، ولذلك نجد في القرآن آيات تنكر على الناس استغرابهم أن يكون الرسل بشراً مثلهم" ⁽³¹⁾.

المبحث الثالث: الإسهام النهضوي للشخصانية الإسلامية.

تمثل الشخصية الإسلامية رؤية فكرية متكاملة تسعى إلى إحياء الروح الحضارية للأمة من خلال إعادة الاعتبار للإنسان كمحور للتغيير والنهضة، وقد قدمت هذه الرؤية إسهاماً نهضوياً عميقاً يتجاوز الإصلاح الشكلي إلى تجديد البنية الفكرية والقيمية للمجتمع المسلم، مستندة إلى أصول الإسلام وروحه الحضارية، وتبرز أهمية هذا الإسهام في كونه يعالج قضايا جوهرية تتعلق بمكانة الإنسان وحرية ومسؤوليته ودوره في الإصلاح، كما يؤسس لرؤية متوازنة تجمعه بين الروحي والمادي، وتعزز قيم المواطنة والمساواة في إطار الانتماء للأمة، ويمكن تلخيص أبرز معالم هذا الإسهام النهضوي في النقاط التالية:

⁽³¹⁾ محمد وقيدي، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 80.

-أولاً: تجديد الفكر الإسلامي.

تمثل الشخصية الإسلامية عند الحبابي مشروعاً تجديدياً للفكر الإسلامي، من خلال إعادة قراءة التراث الإسلامي في ضوء المفاهيم الفلسفية المعاصرة، وتقديم رؤية إسلامية أصيلة تستجيب لتحديات العصر، وتسهم في نهضة المجتمعات الإسلامية، وقد اختار محمد عزيز الحبابي الشخصية مدخلاً لهذا التجديد، لأنها تضع الإنسان في مركز الفعل الحضاري، وتؤكد على قيمته وكرامته ومسؤوليته في تغيير الواقع.

وقد عبر عن ذلك بقوله: ⁽³²⁾ "الإسلام مجموعة أنماط مختلفة لكنونة الشخص، يحيي المسلم حياة إسلامية حقيقية عندما يحيي ذاته كشعور متجسم في العالم وعندما يلتزم بالبحث صادقاً عن واقعه الشخصي، وبما أن كل واحد منا متجسد وواع وملتزم، كان علينا أن نتغير بتغييرنا للعالم وأن نجعله عالماً أفضل طبقاً لسنن الله تعالى، أي لقوانين أرادها الله سبحانه وأوحى بها" ⁽³²⁾.

والاختيار الشخصي عند الحبابي كان نابعا من اقتناعه بعدم وجود تناقض بين الشخصية والإسلام، فقد ⁽³³⁾ "أعطى لهذه الشخصية طابعاً مميزاً لها عن بقية الفلسفات الشخصية، إذ أنها بهذا الاختيار تصير مذهباً يزاوج بين الإيمان بالإنسان والإيمان بالله تعالى مع تطبيق ما يقتضيه ذلك، وهذا ما يدفع الحبابي إلى البحث عن مفهوم شخص داخل الثقافة الإسلامية حتى وإن لم تكن الكلمة موجودة، لأن المهم هو ما تدل عليه هذه الكلمة" ⁽³³⁾.

حيث أكد على هذا المعنى محمد وقيدى بقوله: ⁽³⁴⁾ "قصد محمد عزيز الحبابي من كل ما سلف ذكره إلى إبراز حضور مفهوم الشخص في الثقافة الإسلامية، منطلقاً من البحث عما يدل عليه المفهوم لا عن وجود الكلمة ذاتها، وقد كان هدفه أيضاً أن يبرز عدم التناقض بين الاختيار الشخصي وتعاليم الدين الإسلامي، وقد أبرزنا كيف كان الشعور

⁽³²⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 10.

⁽³³⁾ محمد وقيدى، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 79-80.

بعدم وجود تناقض في هذا المستوى من أسس اختيار الحبابي للمذهب الشخصاني من بين ما كان ماثلاً أمامه في ذلك الوقت من مذاهب فلسفية⁽³⁴⁾.

-ثانياً: تكريم الإنسان وتعزيز مكانته.

تتجلى الرؤية النهضوية للشخصانية الإسلامية عند الحبابي، من خلال التأكيد على تكريم الإنسان وتعزيز مكانته، وإبراز دوره في عمارة الكون وإصلاح المجتمع، وقد استند الحبابي في ذلك إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تؤكد على تكريم الله تعالى للإنسان، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70]، وقوله سبحانه ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: 64].

يقول الحبابي: "لمعرفة مدى التكريم الذي خص الله تعالى به الإنسانية، يكفي أن نشير إلى سجود الملائكة وأمر من الله سبحانه أمام أب البشر احتراماً وإجلالاً، هذا الإجلال خاص بالخالق وحده، نجد في القرآن الله تعالى يخاطب الملائكة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 28-29]، بينما يطلب الله تعالى من الإنسان ألا يسجد أمام أي كان ما عداه تعالى، أوجب على الملائكة أن يسجدوا لله وللإنسان وعندما امتنع إبليس عن احترام وتقدير الإنسان حلت به اللعنة⁽³⁵⁾.

ويضيف الحبابي في موضع آخر قائلاً: "هكذا عزز الخالق الجنس البشري وأعزه، واتخذ موقفاً لنصرته على إبليس ولتفضيله على الملائكة⁽³⁶⁾".

وهذا التكريم الإلهي للإنسان يستدعي منه القيام بمسؤولياته تجاه نفسه وتجاه المجتمع، من خلال الإصلاح والتغيير، ومواجهة مظاهر التخلف والفساد.

⁽³⁴⁾ محمد وقيدى، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 82.

⁽³⁵⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، ص: 24-25.

⁽³⁶⁾ نفسه، (ص: 25).

-ثالثاً: تأصيل قيم الحرية والمسؤولية.

انطلق محمد عزيز الحبابي في مشروعه التجديدي النهضوي من تحقيق الشخصية الإسلامية، وترسيخ أعمدها المتمثلة في التأصيل لقيمة الحرية والمسؤولية المستمدة من الاستقلال الذاتي؛ وهذا يعني أن للإنسان حرية تدرج ضمن المشيئة الإلهية، وهذا ما يجعل حرية الإنسان حرية مسؤولية، مرتبطة بالحق، وقوانين الكون والأخلاق، فالإنسان حر في اتخاذ القرارات، لكنه سيحاسب عليه أمام الله تعالى، لأنه يعيش ضمن عالم له غاية ونظام.

يقول محمد عزيز الحبابي: ⁽³⁷⁾ «إن الشخص برغم استقلاله الذاتي وحرية وقدرته على المبادرات ومواجهه، يبقى تحت تصرف مشيئة الله تعالى لا متناهية والمطلقة...، ونظرة ممعنة في القرآن والسنة تجعلنا نستخلص أن إرادة الله تعالى ليست اعتباطية، بل حكيمة مدبرة، خلقت نظاماً وجعلت للكائنات أطراً وغايات فما خلق الله سبحانه ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الروم: 07]» ⁽³⁷⁾.

وقد أشار محمد وقيدي إلى هذا البعد في فكر الحبابي بقوله: ⁽³⁸⁾ «فالشخصانية تبدأ حين يصبح بمقدور أن يرفض الخضوع الأعلى لأي كان وأن يعترف بقيمة العقل دون أن يعني ذلك قبول السلطة المطلقة لعقل الغير، وأن يرفض كل هيمنة مذهبية وإيديولوجية، إذ لا إكراه عند الإسلام في الاعتقاد» ⁽³⁸⁾.

وهذا التأصيل لقيم الحرية والمسؤولية يستند إلى القرآن الكريم الذي يؤكد على حرية الاختيار واحترام إرادة الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: 255]، والحديث النبوي الشريف: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" ⁽³⁹⁾.

⁽³⁷⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 79، بتصرف.

⁽³⁸⁾ محمد وقيدي، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، ص: 82.

⁽³⁹⁾ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن، رقم: 893، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمامة، رقم: 1829.

فالحبابي يرى أن الإنسان حر في أفعاله، لكنه مسؤول عنها أمام الله تعالى، وهذه المسؤولية الفردية هي التي تمنح الحرية معناها الحقيقي، وتضبطها في إطار أخلاقي، فلا حرية بدون مسؤولية، ولا مسؤولية بدون حرية الاختيار، لهذا نجد الحبابي يؤكد على المسؤولية الفردية في موضع آخر باعتبارها أساسا في المجتمع الإسلامي، حيث يشير إلى أن كل فرد مسؤول أمام الله تعالى عن أفعاله الشخصية فقط، لا عن أفعال الآخرين.

يقول محمد عزيز الحبابي: «إن العمل باعتباره نشاطا مجتمعيا، يفرض المسؤولية الفردية، فكل واحد مسؤول أمام الله تعالى عما يصدر عنه، لا عما يصدر عن الآخرين ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى، وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [النجم: 35-37]»⁽⁴⁰⁾.

-رابعا: تعزيز مفهوم المواطنة والانتماء للأمة.

تتمثل إحدى الركائز النهضوية في فكر الحبابي الشخصاني الإسلامي في تأصيل مبدأ المواطنة وتقوية رابطة الأمة، وتجاوز العصبية القبلية والنزعات الإقليمية الضيقة، فالإسلام كما يرى الحبابي أحدث نقلة نوعية في هذا المجال، حيث حول الانتماء من القبيلة إلى الأمة، ومن الولاء العصبى إلى الولاء القيمي، حيث قال: «كان الشعور بالذات عند العرب في الجاهلية مبلا بنوع من الأنانية القبلية، وبظهور الإسلام أخذ العربي تدريجيا يحى ذاته كجزء من أمة، أي: بوصفه جزءا من مجموع المؤمنين ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: 91]»⁽⁴¹⁾.

فمحمد عزيز الحبابي يبين لنا كيف أن الإسلام قد أغنى مفهوم (الشخص) من خلال نقله من ضيق الانتماء القبلي في العصر الجاهلي إلى أفق إنساني أرحب يتمثل في الأمة، فالشخص في التصور الإسلامي لم يعد مقيدا بعلاقات الدم والنسب والقبيلة، بل أصبح جزءا من جماعة روحية وأخلاقية تتجاوز الحدود الجغرافية والعرقية، لأن الإسلام دين شمول يضيف على الإنسان قيمة كونية ويمنحه بعدا امتداديا غير محدود في الزمان والمكان.

⁽⁴⁰⁾ محمد عزيز الحبابي، من المنغلق إلى المنفتح، ترجمة: محمد برادة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الثانية، 1973م، ص: 103.

⁽⁴¹⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، ص: 09.

وهذا التحول من الانتماء القبلي إلى الانتماء للأمة، يمثل في نظر الحبابي ثورة حضارية كبرى في تاريخ العرب والمسلمين، إذ يقول: ⁽⁴²⁾ «الثورة الكبرى التي حققها الإسلام هي شرف أي إنسان مكتسب بصفة فردية، بفضل ما يقوم به من أعمال الصلاح والخير، لا بالانتساب إلى قبيلة أو موطن، وهذا مخالف تمام الاختلاف لما كان عليه العرب» ⁽⁴²⁾.

وقد أكد القرآن الكريم على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]، وكذلك ورد في حديث النبي ﷺ: "يا أيها الناس، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى" ⁽⁴³⁾.

-خامسا: تحقيق التوازن بين الروحي والمادي.

من أهم مرتكزات الفكر النهضوي الشخصاني الإسلامي عند الحبابي، الدعوة إلى تحقيق التوازن بين الجانبين الروحي والمادي في حياة الإنسان، ورفض النظرات الأحادية التي تركز على جانب واحد وتهمل الآخر.

فقد أبرز الحبابي التصور الإسلامي المتوازن للشخص، بوصفه كلية غير متجانسة ⁽⁴⁴⁾، ومعنى ذلك أنه يجمع بين البعدين الروحي والمادي، دون أن يطغى أحدهما على الآخر، فالإسلام لا يعتبر الإنسان كائنا روحيا صرفا كما هو الحال في بعض الفلسفات، ولا يعتبره مجرد جسد كما في بعض الرؤى المادية، بل هو كائن مركب، تتفاعل فيه الروح والجسد في وحدة متكاملة، ومن هنا يدعو الإسلام إلى تحقيق التوازن بين هذين البعدين كما قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 142]، وهذا الذي دلَّ عليه حديث النبي ﷺ حينما أقر الصحابي الجليل سلمان الفارسي ﷺ على قوله لأبي الدرداء ﷺ: "إنَّ لربك عليك حقا ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه" ⁽⁴⁵⁾.

⁽⁴²⁾ محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 26.

⁽⁴³⁾ مسند أحمد بن حنبل، 474/38، رقم: 23489.

⁽⁴⁴⁾ انظر: محمد عزيز الحبابي، الشخصية الإسلامية، ص: 31.

⁽⁴⁵⁾ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم: 1968.

-سادسا: تعزيز مبدأ المساواة بين البشر:

تبرز مساهمة الحبابي النهضوية في تأصيله لمبدأ التساوي البشري ضمن إطار مشروعه الفكري الشخصاني الإسلامي، مع رفض التمييز بين البشر على أساس العرق أو اللون أو اللغة، حيث قرر هذا المبدأ الأصيل الذي جاء به الإسلام، وذلك باعتبارهم جميعا أشخاصا متكاملين في الإنسانية والكرامة، وهذه الرؤية تتجاوز كل الانتماءات الضيقة التي كانت معيارا للتفاضل في المجتمعات الجاهلية، وهي تكرر مبدأ أن الإنسان يحترم لإنسانيته لا لانتمائه.

وقد وردت المساواة بين البشر في نصوص الشرع، منها ما جاء في الحديث النبوي الشريف: "يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى" (46).

-سابعاً: تفعيل دور الشخص في التغيير والإصلاح:

يرسخ الحبابي في مشروعه الشخصاني الإسلامي مبدأ الفاعلية الشخصية في التغيير الحضاري، مؤكداً أن مسؤولية الإصلاح الاجتماعي تقع على عاتق الفرد الذي عليه أن يبدأ بهذيب نفسه قبل السعي لتطوير محيطه.

يقول محمد عزيز الحبابي: "لكي يتمكن الإنسان من القيام فعليا بالمهام الأولية التي تتجلى في تغييره ذاته، أثناء تغييره للعالم بجهود مشتركة مع الآخرين، يلزم أولاً وقبل كل شيء أن يهذب كل واحد منا نفسه، تمهيدا للتفتح الكافي على التجديد ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 12]" (47).

فقد أسس محمد عزيز الحبابي من خلال هذا المبدأ مفهوم المسؤولية الشخصية والاجتماعية في إطار الشخصانية الإسلامية، فهو يرى أن الشخص هو وحدة متفردة مستقلة⁽⁴⁸⁾؛ أي إنه كائن حر، وواعٍ، يمتلك القدرة على الفعل وعلى إدراك عواقب فعله،

(46) مسند أحمد بن حنبل، 474/38، رقم: 23489.

(47) محمد عزيز الحبابي الشخصانية الإسلامية، ص: 33.

(48) انظر: محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، ص: 47.

وهذا هو جوهر المسؤولية، إلا أن الحبابي لا يختزل المسؤولية في البعد الفردي فقط، بل يوسعها لتشمل المحيط والعالم، مؤكداً أن على الشخص ألا يعتني بذاته فقط، بل أن يكون مسؤولاً عن سلامة الجماعة والبيئة الأخلاقية التي يعيش فيها.

يتضح مما سبق أن الشخصية الإسلامية عند محمد عزيز الحبابي تمثل مشروعاً نهضوياً متكاملًا، يستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية، ويضع الإنسان في مركز الفعل الحضاري، ويؤكد على قيمته وكرامته وحرية ومسؤوليته في تغيير الواقع وبناء المستقبل، وقد قدمت هذه الشخصية إسهامات مهمة في قضية النهوض، وكذلك في تجديد الفكر الإسلامي، وتأسيس قيم الحرية والمسؤولية، وتعزيز مفهوم المواطنة والانتماء للأمة، وتحقيق التوازن بين الروحي والمادي، وتعزيز مبدأ المساواة بين البشر، وتفعيل دور الشخص في التغيير والإصلاح. وهي بذلك تقدم رؤية إسلامية أصيلة للنهضة والتقدم، تستجيب لتحديات العصر، وتسهم في نهضة المجتمعات الإسلامية.

بعد هذه الجولة العلمية في فكر المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي ومشروعه الرائد في "الشخصانية الإسلامية"، يمكن القول إن هذا المشروع يُعد إسهاماً فكرياً متميزاً في الخطاب النهضوي المعاصر، حيث استطاع الحبابي أن يقدم رؤية إسلامية أصيلة ومعاصرة في الوقت ذاته، تضع الإنسان في مركز الفعل الحضاري وتؤصل لدوره المحوري في عملية النهوض والتجديد.

وفيما يلي عرض لأهم النتائج والاستنتاجات التي توصلت إليها في هذا البحث:

-نجح الحبابي في تأصيل مفهوم "الشخص" داخل الثقافة الإسلامية، منطلقاً من البحث عن المفهوم وليس مجرد اللفظ، مما أثبت عدم التناقض بين الاختيار الشخصاني وتعاليم الإسلام.

-أبرز الحبابي التحول الجذري الذي أحدثه الإسلام في مفهوم الشخص، من الانتماء القبلي الضيق إلى الانتماء للأمة الواسعة، ومن العلاقة الأفقية إلى العلاقة العمودية مع الخالق.

-حدد الحبابي السمات المميزة للشخص في الشخصانية الإسلامية، والتي تشمل: الاستقلال الذاتي والحرية المسؤولة، والمسؤولية الفردية والجماعية، والتوازن بين الروح والجسد، والمساواة الإنسانية القائمة على التقوى لا على العرق أو اللون.

-قدمت الشخصانية الإسلامية إسهاماً شاملاً في قضية النهوض من خلال محاور رئيسية: تجديد الفكر الإسلامي، وتكريم الإنسان وتعزيز مكانته، وتأصيل قيم الحرية والمسؤولية، وتعزيز مفهوم المواطنة والانتماء للأمة، وتحقيق التوازن بين الروحي والمادي، وتعزيز مبدأ المساواة بين البشر، وتفعيل دور الشخص في التغيير والإصلاح.

-يملك مشروع الشخصانية الإسلامية إمكانيات كبيرة لمعالجة تحديات الواقع العربي والإسلامي المعاصر، من خلال تقديم بديل حضاري يوازن بين الأصالة والتجديد، ويؤسس لنهضة حقيقية تنطلق من الإنسان كمحور للتغيير.

8. التوصيات:

- من خلال ما توصلتُ إليه في هذا البحث من نتائج، يمكن تقديم التوصيات التالية:
- ضرورة إجراء المزيد من الدراسات المعمقة حول فكر محمد عزيز الحبابي وإسهاماته الفلسفية والنهضوية، خاصة في الجامعات العربية والإسلامية.
- تشجيع الباحثين على دراسة المقارنات بين الشخصية الإسلامية والشخصانية الغربية، لإبراز الخصوصية الإسلامية في هذا المجال.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.
- ابن حجر العسقلاني، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، دار العاصمة، دار الغيث - السعودية، ط الأولى، 1419هـ.
- ابن قتيبة الدينوري، غريب الحديث، تحقيق: عبد الله الجبوري، مطبعة العاني - بغداد، 1397هـ.
- أبو عيسى الترمذي، الجامع، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، 1998م.
- أحمد بن حنبل، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، 1412هـ/2001م.
- أحمد بوعود، محمد عزيز الحبابي: فلسفة إنسانية ومشروع نهضوي، ضمن كتاب جماعي، نحن والغرب، نشر: 2017م.
- دراسات مغربية مهداة إلى المفكر المغربي محمد عزيز الحبابي، جمعية البحث في الآداب والعلوم الإنسانية، المركز الثقافي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط الثانية 1987م.
- السيد ولد أباه، أعلام الفكر العربي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، 2013م.
- عبد الناصر غريب، محمد عزيز الحبابي أول مفكر عربي إسلامي يقبل ترشيحه لنيل جائزة نوبل للآداب، ضمن كتاب محمد عزيز الحبابي: الإنسان والأعمال، ج 3، ط الأولى، 1411هـ/1991م.
- محمد برادة، أجوبة متدفقة، مقالة ضمن مجلة آفاق، العدد 53-54، يونيو 1993م.
- محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط الأولى، 1422هـ.
- محمد عزيز الحبابي، الشخصانية الإسلامية، دار المعارف، ط الثانية، القاهرة، 1983م.
- محمد عزيز الحبابي، مفاهيم مهمة في الفكر العربي المعاصر، دار المعارف، 1990م.
- محمد عزيز الحبابي، من المنغلق إلى المنفتح، ترجمة: محمد برادة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط الثانية، 1973م.
- محمد وقيدي، جرأة الموقف الفلسفي، أفريقيا الشرق، 1999م.
- محمد وقيدي، محمد عزيز الحبابي: الفيلسوف والإنسان، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط الأولى 2016م.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، دار مكتبة المعارف، الرياض، ط الأولى 1412هـ/1992م.
- يوسف بن عدي، محمد عزيز الحبابي وتأسيس الفلسفة الشخصانية الواقعية، نشر مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ط الأولى، 2016م.